المحاضرة الثانية: النظريات المعالجة للتأثير

-تطور دراسات التأثير

-تمهيد

قبل البدء في دراسة تطور التأثير كفعل اتصالي ،وتبيان دوره في عملية الاتصال الانترناتي التفاعلي بين الشباب ومضامين شبكة الانترنيت ، وقبل تحليل تطور دراسات التأثير من مقترب علم نفس الاتصال ينبغي علينا أن نشير إلى أن الفعل الاتصالي يعد في الأساس نشاط إنساني حاو لكل النشاطات الإنسانية الأخرى كما أكدت ذلك مدرسة بالو التو (Palo Alto) الأمريكية، كما يبرز الاتصال اليوم حسب فيليب بروتون (Ph ,Breton) كملاذ عالمي ، ومقاربة أساسية لتحليل المشاكل الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الثقافية ، بحيث أن كل مشكلة تجد لها مقاربة اتصالية .

التفكير في دراسة تأثيرات وسائل الاتصال يقودنا إلى البحث عن المغزى أو الهدف من العملية الاتصالية المراد تحقيقه من قبل عنصر المرسل المنتج للمادة الاتصالية، فهو الذي يحدد أو يرسم التأثير الذي يريد إحداثه ،وهذا المرسل بدوره يتأثر بطبيعة الحال بالسياق الاجتماعي والاقتصادي المحيط به .

كل رسالة اتصالية تبث أو تنتج من قبل أية مؤسسة إعلامية تسعى لتحقيق أهداف عدة , وحسب الباحث الفرنسي ديدي كوربي (Courbet. D)[15] فكل فعل اتصالي يسعى إلى تحقيق إحدى الأهداف التالية , وكل هدف أو فعل تأثيري يشكل ميدان بحث مستقل:

1-إيجاد وصناعة منتَج (أفلام ، ألعاب...) لخلق المتعة و لإرضاء الجمهور من جهة ، ومن جهة أخرى لإرضاء المؤسسة المنتجة للفعل الاتصالي في حد ذاتها ، وذلك بتحقيق الربح الاقتصادي.

2- تحقيق أهداف اجتماعية ، سياسية للصالح العام (إعلام الرأي العام بالأحداث الجارية ، التثقيف العلمي...الخ)

[15]Didier Courbet, Op.cit , p164.

3- تحقيق أهداف اقناعية بغرض التأثير على الأشخاص، سيما من قبل المعلنين والمؤسسات العامة أو الخاصة ، و تنصب الدراسات النفسية الاتصالية للتأثير غالبها في هذا الجانب التأثيري الثالث أي الإقناعي ،هذا النوع من الدراسات مرتبط أساسا بنظام تبادلي (نفسي – اتصالي) يشكل سياقا عاما يحدث ضمنه التأثير، وعلى أساس هذا الجانب التأثيري تسعى المؤسسة أو المنظمة لإحداث تأثيرات معينة في سلوكيات الجمهور ، بحيث تكون هذه السلوكيات المؤثر فيها (المعدلة أو المعززة) تحقق أهداف المنظمة .

حسب الباحث كوربي وزملائه نستطيع التمييز بين ثلاثة أنواع من الاتصال التأثيري :

1- الاتصال الذي يحقق التطور الاقتصادي و التنمية المنظماتية ، وهذا النوع من الاتصال يحقق التأثير المرغوب فيه على مستوى جمهور المؤسسة داخليا أو خارجيا، بشكل يسهل ويمكن من إحداث تفاعل و تبادل اقتصادي بين جماهير المؤسسة ،فيحدث تأثيرات في صالح المؤسسة على مستوى توجهات و سلوكات الجماهير.

2- الاتصال التأثيري النفعي أو ذي المنفعة العامة،كالاتصال أثناء حملات التوعية والتحسيس. 3- اتصال الصحة العامة الذي يكون هدفه نشر التوعية الصحية وإحداث تأثيرات على الجمهور، لكي يستجيب لحملات التوعية العامة التي تباشرها السلطات العمومية ، مثلا أثناء انتشار وباء معين أو حدوث كارثة طبيعية معينة كزلزال أو فيضان....الخ [16]

تعددت وتنوعت مقاربات وجوانب الدراسات المتعلقة بالتأثير في علوم الإعلام والاتصال سيما مع التطور الكبير الحاصل على مستوى تكنولوجيات الاتصال وفي مقدمتها شبكة الانترنيت وسيطرتها على الفضاء العمومي ، و كل تلك الدراسات التي حاولت تحليل تأثيرات وسائل الإعلام والمضامين الإعلامية تركزت على مقاربة علمية أو زاوية بحث محددة ، فمنها ما درس الأثر الاجتماعي ،أي دراسة مدى تأثير الاتصال على طبيعة تكوين المجتمع وهل ساهم في إحداث التغيير الاجتماعي ،أو العكس أي ساهم في تعزيز القيم الاجتماعية السائدة ؟

[16]Chabrol, et autes,Op.cit, p6.

من الدراسات الاتصالية كذلك ما انحصر في دراسة الأثر الاقتصادي ،أي دراسة الفوائد والأرباح والنفقات الاقتصادية للعملية الاتصالية واعتبارها نشاطا اقتصاديا يدر بالربح على المؤسسة المالكة للوسيلة ،ومن الدراسات الاتصالية أيضا ما انحصر في محاولة دراسة التأثير التكنولوجي لعملية الاتصال على الأفراد ، من حيث درجات اعتماد الأفراد على وسائل الإعلام (مثل دراسة عادات المشاهدة لدى مستهلكي البرامج الإعلامية ،و دراسة سلوكات الإدمان والإفراط في متابعة الحصص الإعلامية لدى فئات معينة من المستهلكين ...الخ)

لقد لاحظ الباحث سرج موسكوفيشي (Serge Moscovici) مبكرا منذ سبعينيات القرن الماضي أن المقاربات الاتصالية تنوعت وتعددت ، بعض الأبحاث مع بدايات السبعينيات اهتمت فقط بالجانب اللغوي للاتصال أي نقل رموز لغوية معينة دون غيرها من الجوانب ، كما أجريت آنذاك دراسات أخرى كثيرة انصب اهتمامها على الزاوية الاتصالية فقط دون غيرها من الزوايا.

أغلب الدراسات الكلاسيكية التي اهتمت بدراسة تأثيرات عملية الاتصال سيما في النصف الأول من القرن العشرين كانت تجرى ضمن نطاق مشارب علمية متعددة غير علم الاتصال ، كعلوم اللغة والسيميوطيقا وعلوم الخطاب والاثنيومنهجية واللسانية – الاجتماعية ، وكذا اللسانية- النفسية ...الخ ، علوم الاتصال كعلم قائم بذاته في تلك الفترة كان علما ناشئا لم تتحدد معالمه وحدوده المنهجية بعد، لذا كان أغلب الباحثين والعلماء الذين أجروا دراسات حول تأثيرات الاتصال ينتمون إلى التخصصات والمشارب العلمية التي ذكرناها سابقا [17].

علوم اللغة على سبيل المثال كانت تدرس هذه الآثار وتركز حسب الباحث كوربي على مسألة الآثار المحتملة و المستهدفة (Effetspossibles et visés) ،وكذلك اهتمت بتحليل مسألة الاستقبال المثالي (Réceptionidéale) وفق أومبيرتوإكو وهانس روبرت جوس[18].

[17]André ,Gosselin. (1992). L'analyse des effets pervers en science des communications, Canadian Journal of Communication, Vol 17, No 3 .

[18]Didier Courbet, Op.cit , p164.

أما علماء اجتماع تلك المرحلة سيما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد تركزت دراساتهم على جانب آثار العنف الاتصالي الذي تحدثه وسائل الإعلام على الجمهور،وعلى تحليل المعاني التي يكتسبونها خلال متابعتهم الذهنية والعاطفية للبرامج الإعلامية ،وذلك طبعا ضمن السياقات الاجتماعية التي تربط أفراد الجمهور بعضهم ببعض حين يتواجدون في مجال اجتماعي وجغرافي واحد كالأسرة وجماعة الأصدقاء، وزملاء الدراسة...الخ

نادرا ما كانت هذه الدراسات الاجتماعية تأخذ في الحسبان الجانب اللغوي و السيميوطيقي كمقاربة مهمة لتحليل دراسة الآثار ، تميل النظريات الاجتماعية التي تتساءل عن التأثيرات العامة والفورية لوسائل الإعلام على حسب الباحث الأمريكي ميلفيندیفيلر (M, Deffler) إلى الاعتماد على "الصورة الكبيرة " الاجتماعية ،والطريقة التي تستطيع بها القوى الاجتماعية الطويلة الأجل أو الواسعة النطاق أن تؤثر على الأفراد بواسطة وسائل الاتصال الجماهيرية ،أو العكس أي كيف تؤثر وسائل الاتصال على هذه الجماعات الاجتماعية ؟[19]

لقد استندت المقاربة الاجتماعية في دراسة آثار الاتصال على أفكار علماء الاجتماع الأوائل كإميل دوركايم و هربرت سبنسر ،فقد استخدم دوركايم مثال البناء الوظيفي في تحليله الكبير عن نتائج التعقيد الاجتماعي المتزايد ، وأوضح كيف أن التخصص المتزايد الذي يؤدي إلى تقسيم تمييزي إلى حد كبير للعمل يؤدي إلى نقص توافق الرأي الجماعي ، وهو ما يسبب نقصا في الاتصالات الفعالة بيت الأشخاص ، وزيادة الارتباك فيما يتعلق بالقواعد الموجهة للمجتمع ، وقد أطلق على هذه الحالة اسم "الافتقار إلى الهوية" ، والتي تترك بدورها الأفراد في حالة تشويش نفسي (الافتقار إلى الهوية الشخصية) لأن مفاهيمها الذاتية للقواعد المجتمعية غامضة بالمثل ، ومثل هذا الوضع يقلل الروابط الوثيقة والحميمة بين الناس ، ويترك مثل هؤلاء الأفراد معرضين بصورة متزايدة لتأثيرات من مصادر أخرى [20].

---

[19] ملفين ،دفلير و ساندرا بول روكيتش.(1993). نظريات وسائل الإعلام .(كمال عبد الرؤوف ، مترجم) ، القاهرة : الدار الدولية للنشر والتوزيع.

[20] Melvin L. DeFleur and Sandra Bale-Rokeach. (1989) .Theories of Mass Communication . (5th Edition) , Editions: Hardcover.

اعتمد واصفو نظريات تأثير الاتصال على منطق دوركايم في صياغة الرأي القائل بأن ظروفا كالعزلة والتشويش الشخصي هي العوامل التي تجعل من الأسهل التأثير على الأشخاص وإقناعهم بواسطة وسائل الإعلام ، فهم اعتمدوا إذن على هذا البناء الوظيفي الذي اعتمد عليه من قبل دوركايم.

على النقيض من ذلك تتجاهل النظريات النفسية عن تأثيرات وسائل الإعلام الصورة الاجتماعية الكبيرة ، بل تقتصر على اختبارات للنتائج المباشرة نسبيا للتعرض القصير الأجل لمحتويات وسائل الاتصال الجماهيرية ، ويعتمد هذا المنهج على متغيرات أكثر بساطة وتحديدا لأنها تهتم بعمليات نفسية داخلية تستطيع وسائل الإعلام بمضامين إعلامية مفيدة أن تترك أثرا ما يدفع الناس إلى التصرف بأساليب معينة ، أو إقناعهم باتخاذ قرارات ما ، كشراء المنتوجات والسلع على سبيل المثال.

أما رواد اتجاه الدراسات الثقافية فقد انتقلوا من تحليل المفاهيم الاجتماعية النقدية في دراسة آثار وسائل الإعلام المتركزة على التحليل النصي السيميوطيقي للرسالة الاتصالية إلى مقاربة انتربولوجية بحتة تأخذ في الحسبان خطاب الملتقى كأساس لدراسة الآثار، و ذلك من خلال تحليل مضامين خطابات الملتقى كأثر رجعي لإرسال المنتوج الاتصالي ، كتلك الدراسات التي أجراها ستيوارات هيل (S, Hall) ، إذ فضل التخصص في دراسة العلاقات الكامنة بين الاتصال والثقافة.

من المقاربات المهمة التي برزت مع بدايات الثمانينات من القرن الماضي أيضا المقاربة "النفسية – اجتماعية- سيميوطيقية " و عرفت فيما بعد بـ"علم النفس الاتصالي " ، سنعتمد في دراساتنا هاته على هذه المقاربة المنهجية لتحليل أثار الانترنيت (النفسية –الاتصالية) على الشباب في الجزائر – إذ نعتقد أنها الأنسب منهجيا لإبراز ودراسة كيفيات تعرض الشباب لمحتويات الانترنيت ،برزت هذه المقاربة إلى الوجود مع البحوث والمشاريع التي أجريت في مركز تحليل الخطاب

(CAD) بأمريكا بقيادة باتريك شارودو (Patrick Charaudeau) و تلك التي أجريت أيضا في وحدة البحث حول الكلمة (GRP) بقيادة رادولف غيجليون (RadolphGhiglione) [21].

فيما بعد ظهرت إلى الوجود عدد من النظريات التي استخدمت كإطار منهجي لتحليل تأثيرات وسائل الإعلام دائما وفق مقاربة نفسية اتصالية كنظرية التعلم والنمذجة الاجتماعية لباندورا (Bandura)، ونظرية أولوية التقييم العاطفي والأتوماتيكي(PEAA) لزاجونغ (Zajong)، والتي حاولت دراسة التأثيرات المرتبطة بالتعرض المتكرر لمحتويات وسائل الإعلام على الجمهور ،و حللت العوامل المرتبطة بتخزين المعلومات و تشفيرها و ثمة إعادة استرجاعها .

نجد أيضا نموذج (Elaboration likelihood model) للباحثين بيتي وكاسيوبو (Petty et Cacioppo), اللذان أشارا إلى التأثيرات التي تؤدي إلى إحداث تغييرات في الاتجاهات ، وذلك حين تتم معالجة المعلومات على مستوى المركز والأطراف فتؤدي إلى إثارة الدوافع لدى الشخص فيسلك سلوكا معينا يحقق التغيير المرجو[22].

نشير أيضا إلى ظهور نموذج التأثير المحتمل المضاعف لكل من ويلسون و أل (Wilson et Al) ،هذا النموذج حديث زمنيا نسبيا مقاربة مع النماذج والنظريات السابقة الخاصة بتأثيرات وسائل الاتصال ظهر عام 2000.

كل النماذج والنظريات السابقة اتخذت ملاذا منهجيا وإطارا استند عليه الباحثون لدراسة تأثيرات وسائل الإعلام ، سيما مع ظهور تكنولوجيات الإعلام والاتصال ،على رأسها شبكة الإنترنيت ،التي فرضت واقعا اتصاليا جديدا، بل أعادت النظر في كثير من المفاهيم والنظريات الاتصالية ،لذا استلزم الأمر إيجاد أطر ومقاربات نظرية جديدة بمقدرتها أن تكون مرجعا لتفسير ما يسمى بالاتصال الجديد أو الإعلام الجديد ،فلم تعد النظريات السابقة الكلاسيكية كنظريات التأثير الخارق أو نظرية التأثير على مراحل ،مثل نظرية القذيفة السحرية ، نظرية لولب الصمت ،أو غيرها

[21]R ,Ghiglione. C, Chabrol.(2000). Contrats de communication : stratégies et enjeux , introduction au numéro spécial de laRevue Internationale de Psychologie Sociale, 4, pp. 7-15.

22Chabrol, et autre, Op.cit, p6.

قادرة على أن تكون مرجعا لتفسير العمليات الاتصالية التي تحدث في ظل سيادة التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال .

4.1- النظريات المعالجة للتأثير

حين تزاوجت علوم الاتصال مع علم النفس ولد علم النفس الاتصالي ،والاتصال بطبيعة الحال لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن العلوم الأخرى فهو وليد العلوم الاجتماعية بالأمس ،ولم يستطع قط أن يكون علما مستقلا بذاته لا يتداخل مع العلوم الأخرى ،لأن الكائن البشري بطبعه يميل إلى التفاعل الاجتماعي ،ويعيش داخل بنية اجتماعية ،لذا لا نستطيع مثلا دراسة التفاعل بين - شخصي دون الاستناد إلى علم النفس الاجتماعي ،ولا نستطيع كذلك دراسة أثار تعرض الفرد لمحتويات إعلامية معينة دون الاستناد إلى علم النفس الاتصالي، لسبر أغوار هذا التأثير ومعرفة درجات تأثر الشخص اتجاهاتيا ،معرفيا و سلوكيا[23] .

هذا الارتباط الابستمولوجي بين الاتصال وعلم النفس هو ارتباط طبيعي ،فلا علم نفس دون اتصال ،ولا علم اتصال دون علم نفس ،فعلم النفس كما يقول السيكولوجيون لم يعد يكتفي اليوم بدراسة الظواهر وملاحظة خطوط السلوك البشري ،بل إنه بات يتعمق في دراسة الدوافع والأسباب المؤدية إلى الظواهر معتمدا على الاتصال ،فالاختبارات والفحوص النفسية والأساليب الاسقاطية والإيحائية وأنواع العلاج النفسي كلها تستند إلى مبادئ الاتصال ،وكلها تصبح عديمة الجدوى في حال اضطراب الاتصال ،وكثير من الإضرابات النفسية أصبحت تسمى باضطرابات الاتصال ،وفي مقدمتها الخجل والقلق الاجتماعي والخوف من مواجهة الجمهور أو التحدث إليه ،وغيرها من مشكلات التكيف[24].

---

[23]Pascal , Marchand, et autres.(2004). Psychologie sociale des médias. Rennes, Presse universitaire de Rennes.

[24]عبد الفتاح ،محمد دويدار.(1999). سيكولوجية الاتصال والإعلام .الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية,ص ص 15-17.

الاتصال بكل تأكيد هو الركن الأساسي في دراسة النفس البشرية ،دونه نكون عاجزين عن فهم معانات النفس وسير أغوارها وأمانيها ورغباتها ،بل إن غياب الاتصال يجعلنا عاجزين عن تحديد أمراض النفس واضطراباتها ، وهذا القول يستتبع الوصول إلى نتيجة مؤداها أنه كلما طال فهمنا للنفس الإنسانية كلما ازداد وعينا لقصورنا الحسي في الاتصال بالنفس[25].

يوجد عدد من النظريات التي قدمت تصورات عن كيفية عمل الإعلام وتأثيره، كل نظرية تركز على جانب واحد أو عدد من الجوانب التي تغفل عنها النظريات الأخرى ،فمن النظريات ما اهتم بتفسير وتناول التأثير الاجتماعي للاتصال ،منها ما اهتم أيضا بتأثيراتها الشخصية على الأفراد ، بعض النظريات عالجت التأثير من زاوية المدى أو المدة الزمنية التي يتحقق فيها التأثير كالمدى القريب أو المعتدل أو الطويل ، منها أيضا ما اهتم بدراسة درجة وقوة التأثير كالتأثير الخفيف ، المعتدل ، أو القوى ...الخ

سنتعرف في هذه الدراسة على مجمل النظريات التي عالجت مسألة التأثير ، ذلك سيفيدنا في فهم وتحليل كيفيات حدوث العمليات التأثيرية ،وسنعتمد على هذه النظريات كبوصلة منهجية كما يسميها الباحث الكندي موريس انجرز تدلنا على المسارات المناسبة خلال إعداد هذا البحث ، ذلك أن النظرية تساعد على توجيهنا علميا ومنهجيا ، نظريا وتطبيقيا في سبيل إجراء الدراسة وفق معايير موضوعية.

فالنظرية هي محصلة دراسات، وأبحاث ، ومشاهدات وصلت إلى مرحلة من التطور قامت على كم كبير من التنظير والافتراضات التي قويت تدريجياً من خلال إجراء تطبيقات ميدانية ،و أهم ما يميز النظرية هو قدرتها المستمرة على إيجاد تساؤلات جديرة بالبحث، إضافة إلى استكشاف طرق جديدة للبحث العلمي .

كما تشرح النظرية في مجال دراسة تأثيرات الإعلام والاتصال ما تحدثه وسائل الاتصال من تأثير في الجمهور، أو من تأثير الجمهور نفسه في الوسائل ، أيضا كيف تؤثر مضامين الرسائل الإعلامية

[25] عبد الفتاح محمد دويدار، مرجع سبق ذكره ، ص ص15-17.

سواء على الجمهور أو على الوسائل نفسها . بل تتجاوز ذلك أحيانا إلى تقديم تصور عما يمكن أن يحدث مستقبلا. كما تقدم النظرية تصوراً عن التغيرات الاجتماعية المحتملة و تأثيرات وسائل الإعلام فيها.

مجمل النظريات التي توفرت خلال عقود عديدة لبحث تأثير وسائل الاتصال الجماهيري ترى لوسائل الاتصال تأثيرا في الأشخاص والمجتمعات إلا أن كل نظرية تذهب إلى افتراض كم ونوع لذلك التأثير ، وذلك بحسب اختلاف الوسيلة المستخدمة لتوصيل الرسائل الاتصالية وحسب اختلاف الأشخاص أو الجماعات الاجتماعية التي توجه لها تلك الرسائل ، فهي جماهير تتمايز نفسيا واجتماعيا وتتنوع فرديا من حيث القدرات الاستقبالية و الإدراكية للرسالة ، كما أن البعض يرى أن تأثير وسائل الإعلام على مجتمع معين لن يكون بنفس درجة تأثيرها عليه في جميع الفترات ، بل يتغير من آن لآخر . ولذلك فمن الصعب حسب ملفين ديفلر (M,Defleur)أن نصف نظريات أو نقدم تفسيرات محددة لآثار وسائل الاتصال تكون صالحة لكل الأشخاص في كل العصور [26].

لم يزل أساس العلم هو البحث عن حقائق دائمة ، فالبحث العلمي يهدف إلى وصف للعلاقات المنتظمة بين الظواهر وتقديم تفسيرات عن كيفية تأثير بعض الأحداث بحيث تؤدي إلى تكوين نماذج متكررة . وبعبارة أخرى ، إن الأبحاث العلمية تهدف إلى البحث عن مبادئ لا تتغير ، وبصراحة فإن هذا الهدف ليس بالمهمة السهلة ، وبالذات إذا كان الأمر يتعلق بآثار وسائل الاتصال على الناس وذلك بسبب التطور الطبيعي لوسائل الإعلام من جانب وتطور المجتمع من جانب آخر .

على الرغم من هذه الصعوبات أجرى الباحثون منذ بدايات عصر وسائل الاتصال محاولات كثيرة لفهم آثار وسائل الإعلام على الناس ، وظهرت نتيجة لهذه الأبحاث سلسلة من النظريات تكونت متأثرة بنماذج فكرية وفلسفية واجتماعية و انتربولوجية مختلفة ، بالإضافة إلى مساهمة علماء السياسة والاقتصاد والنفس ، وكل هؤلاء أضفوا تأثيرا كبيرا في فهمنا المعاصر لنظريات تأثير وسائل الإعلام .

[26] ميلفين ديفلر، مرجع سبق ذكره ، ص212.

فيما يأتي سنعرض مجمل نظريات التأثير مبرزين ما طرحته بخصوص العملية التأثيرية، وسنتحدث عنها مراعين التسلسل التاريخي لظهورها، بدء من مرحلة التأثير القوي والخارق لوسائل الإعلام مرورا بالمرحلة التي ساد فيها الإيمان بالتأثير المعتدل أو الخفيف أو الانتقائي ، وصولا إلى التأثير في المجتمع المعاصر ، المجتمع الجديد الذي يطلق عليه عصر المجتمع المعلوماتي أو عصر الإعلام الجديد .